

أحب وأُخرجت سَكينة من الدار؛ سعى إلى زنوبة من قبل سيده يلتمس خادمًا، ويومئذ

...

وأما مخرجي أنا من هذه الدار التي أعمل فيها فليس أيسر منه ولا أهون. لقد دخلت الدار ولم تكن في حاجة إليّ، وإنما قبلني أهلها رفقًا وعطفًا عليّ وإحسانًا إليّ ورعاية لعهد أمي، فأنا عندهم ضيف، أستطيع أن أرحل متى شئت، وأستطيع أن أقيم ما أحببت، على أن ظروف الحياة لم تضطرنني إلى أن أتكلف الاستئذان في الرحيل والتماس العلل والمعاذير، وإنما قضت بأن أخرج من هذه الدار إخراجًا وأنبذ منها نبذًا، وإنني لأذكر قصة ذلك الآن فأبسم لها ابتسامًا ملؤه الحنان والحب، وكثيرًا ما ذكرت هذه القصة قبل اليوم فامتلاً قلبي حبًّا لهؤلاء الناس وحنانًا إلى هذه السداجة التي كانوا يعيشون فيها والتي كانت تصور لهم أمورهم كلها في صورة الجد الذي لا يشبهه جد، والتي لا يتحدث بها الناس في هذه الأيام إلا ضحكوا منها ساخرين إن كانوا قساة القلوب، وابتسموا لها عاطفين إن كانوا يقدرّون الذكرى ويحبّون الحياة التي لا تكلف فيها ولا رياء!...

كان شباب الدار يعكفون أكثر النهار على كتبهم هذه التي أقبلوا بها من القاهرة، يقرّعون فيها قراءة متصلة لا يكاد يصرفهم عنها شيء، وكثيرًا ما كانوا يدعون إلى طعامهم فيبطئون، وكثيرًا ما كان إبطاؤهم يغيظ أباهم ويملؤه بهم إعجابًا ولهم حبًّا. وكان أهل الدار جميعًا — وربها أولهم — مقتنعين أشد الاقتناع بأن هؤلاء الشباب إنما كانوا يعكفون على هذه الكتب حبًّا للعلم وإيثارًا للدرس وجدًّا في التحصيل، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بنشاط هؤلاء الشباب الذين لا يكفيهم العمل طول العام الدراسي في القاهرة، ولكنهم يعملون أثناء الراحة ويحرمون أنفسهم لذة الرياضة والاستمتاع بشيء من النعيم، وإنما هي الكتب إذا أصبحوا، وهي الكتب إذا أمسوا، وهي الكتب إذا أن أن يقيّلوا بعد الغداء، ما أشد فتنة العلم لهؤلاء الطلاب الأذكياء الذين يحبونه أشد الحب ويأخذون منه بأعظم الحظ، ويريدون أن ينبغوا فيه وأن يظفروا بالشهادات في غير إبطاء، وأن يكونوا موظفين بعد ذلك يتقاضون المرتبات في آخر الشهر ويؤدونها كلها أو بعضها إلى أهلهم!

وكان أهل الدار يجدون في هذه الأحاديث لذة، ويطلقون خيالهم فيها إطلاقًا، وكانت سيدة الدار تتمثل هذا كله وتتوسل في تحقيقه وتعجيله إلى الله بهذا الدعاء الساذج اليسير الذي تجري به السنة أمثالها من أهل المدن والقرى، وتكثر في الوعد بالندور المختلفة لهذا الشيخ وذلك الولي.